رغبـــة

رغبـــة

مجموعة قصصية

سمية عبد المنعم

رغبـــــة

اسم الكاتبة: سمية عبد المنعم
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: 2018 / 23219
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 42 - 2

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

مقدمة

في مجموعتها القصصية الثانية: "رغبة"، تتقدم سمية عبدالمنعم خطوات ملموسة في رحلة البحث عن اكتمال ملامح مشروعها الإبداعي، ذلك أنها تتخلص من عثرات وشوائب غير قليلة تظهر في مجموعتها الأولى "جنون الحب"، وتقترب من النضج الذي يتمثل في المزيد من وضوح الرؤيتين الفنية والموضوعية: أدوات البناء والتشكيل من ناحية وبلورة القضايا الأساس التي تنشغل بها من ناحية أخرى.

يمكن القول إن هموم المرأة، في إطار التحولات الاجتماعية والثقافية العاصفة التي تشهدها الحياة المصرية، هي الهاجس المهيمن على معالجات سمية، ومن البدهي أن مفهوم "الهموم" يتسع ليشمل الموقع الذي تحتله المرأة في الواقع بشكل عام، ولا ينفصل في الوقت نفسه عن المعاناة الذاتية التي تتجلى في الجسد والعلاقة مع الآخر؛ الرجل.

******

على صعيد التشكيل الفني، لابد من الانتباه إلى مجموعة من السمات والخصائص التي ينبغي الالتفات إليها لاكتشاف عالم الكاتبة وخصوصية النهج الذي تتبعه.

اللغة هي السمة الأولى الجديرة بالتأمل والاهتمام في قصص سمية عبدالمنعم، وفي ظل الانهيار اللغوي الذي يسهل اكتشافه عند أبناء جيلها، والأجيال السابقة واللاحقة أيضًا، تبدو الإشادة واجبة بسلامة لغة الكاتبة ونجاتها من السقوط في هاوية الأخطاء الكارثية المشينة الشائعة، لكن الأمر لا

يقتصر على هذا الجانب الشكلي المهم، فهو يتجاوزه إلى مراودة أسلوب سلس مضيء قوامه مفردات دالة مكثفة، تبتعد عن التعقيد والتسطيح معًا، وتهرول بعيدًا عن البلاغة التقليدية الموروثة لتعانق آفاق التوافق مع طبيعة الشخصية وموضوع القصة. في سياق كهذا، لا يشعر القارئ بالنشاز والغربة، وتتحول اللغة إلى أداة جوهرية مهمة لإثراء النص والكشف عن أعماقه الكامنة.

السمة الثانية تتجسد في تجنب الثرثرة السردية ذات الطابع الحكائي الفج، ويترتب على ذلك التوجه تمتع القصة بالحيوية وغياب الترهل وما يقترن به من آثار سلبية تفضي إلى ارتباك الرؤية. لا شيء من المباشرة والخطاب الزاعق، وتتغلغل الثقة في نسيج النص بريئة من لعنة التوجيه والتحريض والإمساك بتلابيب القارئ حتى يرى ما يتحتم عليه، من منظور الكاتب، أن يراه!.

سمة فنية ثالثة تترتب على ما سبق، ونعني بها اقتراب قصص المجموعة، أو الأغلب الأعم منها، من اللوحة التي تجمع بين اللقطة الفوتوغرافية والمشهد السينمائي والروح التشكيلية، ومثل هذه المكونات تتجلى بوضوح لافت في النصوص بالغة القصر، وهو الشكل الذي تتحقق فيه "سمية" لأنه المناسب لما تراوده من تكثيف يجمع بين الحياد الموضوعي البعيد عن الإسراف الانفعالي العاطفي، والانحياز لتجسيد قضيتها عبر آليات ذات إيقاع هادئ تتسلح في المقام الأول باللغة الكاشفة والحركة المحسوبة.

كيف تعبر قصص مجموعة "رغبة" عن قضايا المرأة وأزماتها المتراكمة؟، وما العناصر الأكثر إلحاحًا في تناول الكاتبة؟. الإجابة تتمثل في المحاور التالية:

- الأنوثة تهمة

-الكبت والحرمان

- طوفان الشهوة

- السلوك الجنسي المختلف

******

ليس مثل قصة "الآخرون" في التعبير الإنساني الصادق، المسكون بالوجع والتمزق، عن حقيقة إن الأنوثة، وهي عطاء الطبيعة، تهمة خطيرة جديرة بأن تُؤمم وتُجهض. من هنا، تلجأ "سهيلة" إلى قمع ثدييها، علامة تجاوز الطفولة والاقتراب من النضوج، علها تحظى بقدر من الاستقرار النفسي المفقود، وتقاوم العيون الشرسة المتوحشة التي تطاردها وتصنع أجواء التوتر: "هكذا صرت طبيعية.. هكذا أستطيع أن أحيا بين الناس".

خاتمة كهذه تجعل من "غير الطبيعي" فعلاً طبيعيًا منشودًا، ذلك أن الحصار يشتد ويصنع طوفانًا مدمرًا من الارتباك والاضطراب، ولا دواء عندئذ إلا الوأد الذي يرادف الانتحار، فكيف يكون التوافق مع الحياة بالتخلص من الحياة؟!.

الأزمة هنا ليست فردية استثنائية، بل هي اجتماعية ثقافية شاملة شائعة، تترتب على منظومة القيم المشوهة الحاكمة المتحكمة، تلك التي تنفر

من علامات الجنس، وتنتصر للجهل وإنكار الحقائق، دون مبالاة بما يفضي إليه هذا الموقف غير السوي من أزمات نفسية وجسدية.

الدورة الشهرية الأولى موضوع قصة "بلوغ"، وفيها شهادة دالة على شيوع الجهل الذي يدفع الأم إلى التجاهل، ويقود الفتاة بالضرورة إلى البحث العشوائي المحفوف بالمخاطر، أما قصة "الكشك الخشبي" فتقدم رؤية بالغة الدقة والعذوبة، كأنها الفيلم السينمائي القصير، عن عملية الختان الوحشية التي تقترن بمزيج مرعب من الألم والخوف والشعور الكامن غير المبرر بالإثم، وتجعل من فكرة الجنس مغامرة كريهة ذات صلة وثيقة بالقهر دون المتعة.

يتيه المجتمع الذكوري بالرجولة ويعلي من شأنها، ولا يتوانى في الوقت نفسه عن النفور من الأنوثة منذ بواكير ظهورها، فهل ينتج هذا الخلل إلا مناخًا مناسبًا لشيوع الكبت والحرمان؟.

مفردات هذا الملمح تشيع في "هو" و"صورة" و"الرقص" و"قناع" و"هي"، أما الذروة فتصل إليها "سمية" في قصتي "الخائنة" و"رغبة"، في هاتين القضيتين تحديدًا رصد لجذور الأزمة عبر معالجات شتى: الحنين المبكر الغائم للحب، غياب التحقق والإشباع، التوق إلى التحرر والانطلاق والمتعة في ظل خذلان الرجل وتهافته، الفارق الشاسع المزعج بين الواقع والخيال، فضلاً عن التلازم الحتمي بين قهر الجسد وتوحش الفقر.

لعل السؤال الأهم الذي تطرحه قصة "الخائنة" هو: "ما الخيانة؟!. الشائع عن المفهوم ليس دقيقًا، حيث الربط الميكانيكي مع التفريط في الشرف من منظور جسدي؛ فهل يمثل عذاب غياب الإشباع إلا خيانة لا تقل قسوة؟!.

الصراع العنيف بين طوفان الشهوة وقيود الكبت، موضوع أثير مكرر في قصص سمية. في "الضحية" تنتصر المرأة القوية المسلحة ببراعة الإغواء وإرادة السيطرة، وفي "سعاد" تنجح الخادم ذات الأنوثة الطاغية في تشكيل الأنموذج الذي يبحث عنه المراهق، رجل المستقبل، في مراحل حياته المختلفة، ويصل الصراع في "حائرة" إلى عراك عنيف مثير تحيطه الخصوبة المتوهجة شبيهة النار التي تلتهم العوائق جميعًا.

المرأة القوية المسيطرة ذات حضور كثيف في عالم سمية عبد المنعم، يعادله وجود مماثل للفتاة المقهورة المحاصرة بالقيود والتقاليد، وفي قصة "عطش" تختل المعادلة عمدًا، ويتحول النداء الملح للجسد إلى قيد يشل الإرادة، ويقود إلى الرضا الاضطراري بالمتاح!.

**

"السلوك الجنسي المختلف" مصطلح أكثر دقة وأقرب إلى الموضوعية والحياد من "الشذوذ الجنسي"، وقد يغضب المتنطعون من قصص مثل "الذئب" و"امرأتان" و"الخروج"، ويجدون في الموضوع وأسلوب المعالجة تجاوزًا أخلاقيًا يزلزل المستقر من قيم مجتمع يزعمون كذبًا أنه مثالي متطهر يخلو من الشوائب والعكارات، متجاهلين أن معطيات الواقع اليومي، المنشورة في الصحف والمواقع الإخبارية، تفوق ما تقدمه القصص المشار إليها من وقائع صادمة.

في قصة "الذئب" امتداد عصري لما يقدمه يوسف إدريس في "بيت من لحم"، والفارق بين الأب عند سمية وزوج الأم عند إدريس، هو الفارق نفسه

بين عالمين وزمنين، يحكمهما الانهيار والتفسخ، أما قصة "الخروج" فتقدم الكثير الذي يتجاوز رغبة الطفلتين في اكتشاف أسرار وخبايا الجسد، ذلك أنها تتطرق إلى المجتمع المسكون بالازدواجية والرضوخ لقانون الصمت الذي يحذر منه إدريس قبل أكثر من نصف قرن.

الإبداع الفني بطبيعته ليس أخلاقيًا يحض على الفضيلة ويحذر من الرذيلة، ولا يعني هذا أن وظيفته هي العكس من ذلك، لكنه ينتصر للإنسان في حالاته جميعًا.

******

لمعانقة تمام النضج، تحتاج سمية إلى التخلص من بقايا الروح الصحفية التي تسيطر على بعض قصصها، وتحتاج أيضًا إلى التشبث بشجاعة الاستمرار في كتابة ما تنفعل به وتتفاعل معه، دون انشغال بالكهنة وأدعياء التطهر الذين يخاصمون جوهر الحياة الإنسانية، ذلك أن الفضيلة في الإبداع أن تكون صادقًا.

مصطفى بيومي

٢٠١٨-١٠-٣٠

"سعاد"

بضحكة لاهية قابلت نظراته المختلسة من فوق كتاب يتظاهر بقراءته بينما عيناه لا تفارقان خطواتها.

صيحات ناهرة تجعله ينتفض ويلصق نظراته بكتابه

_ بت يا سعاااد.. إنت هتقضي النهاركله في أوضة سيدك الصغير.. خلصي يا زفتة ورانا بلاوي.

تسرع بمغادرة الحجرة متأففة ولا تنسى أن تغمز بطرف عينها في دلال أسقط الكتاب صريعًا من بين يديه.

سعاد.... مفتاح الكنزوباب الولوج إلى العالم الساحر.. جسد من العاج المزهر يتلألأ بين عينيه جيئة وذهابًا، عشرون عامًا عمرها وأربعون عمر فتنتها وخبرتها.

ها هو الليل بصخبه يزحف إلى عينيه فيزيح ذلك الملل الجاثم فوق سنواته الأربع عشرة ويمسك بتلابيبها يجرها جرًا نحو عالم ساحر صار ضيفًا محببًا على أحلامه يتلهف إلى زيارته كل ليلة.

زئير الباب يعلن أن الليلة موعد تحقيق الحلم ، حاول أن يتظاهر بالنوم لكن رعشة جسده فضحته، لم يقاوم.. وكيف يفعل وهو المتلهف إلى ذلك السحر.. كان تلميذًا طائعًا مأخوذًا بما رأى وما فُعل به...فأدمن كونه تلميذًا لساحرة تأمر فتطاع وتأخذ أكثر مما تمنح، فلم يكن بدٌ من أن يُختزل الكون كله بين يديها.. يدي سعاد.

.....

أفاق ذلك الشاب الثلاثيني من ذكرياته بينما مازال سؤال صديقه يطن بأذنيه " إلى متى ستظل تتزوج وتطلق.. ألن تقنع بامرأة أبدا ؟."

تنهد في ألم وأشاح بوجهه متمتمًا:

_ حتى أجد سعاد أخرى.

" مد إليها يده مسلمًا وعلى وجهه شوق مرتعد ، أحست به فلم تجد حيرتها بدًّا من أن تترك له يدها يحتضنها في حنو "

"هو"

ربما أراد أن يقترب من تلك الضحكة المشرقة ويلمس ذلك الوجه النابض بالأمل ليتأكد أنه مازالت تحيا بيننا براءة من نوع خاص .

فراح يدنو من ملائكيتها رويدا رويدا وكأن هالتها تبتلعه بكليته .

حدجته بنظرة متسائلة وهي ترى اقترابه المأخوذ ، حاولت أن تتشاغل بلهوها ، قفزت فوق تلك العربة الواقفة وأخفت جسدها الضئيل في صندوقها ، لكنه كان قد وصل إلى محرابها ، مد إليها يده مسلمًا وعلى وجهه شوق مرتعد ، أحست به فلم تجد حيرتها بدًّا من أن تترك له يدها يحتضنها في حنو ، لكن شوقه لم يقنع بمجرد سلام ، فطلب إليها أن يلثم خدها الناري ، أطرقت في خجل أجج أكثر ، وأومأت بموافقة حيرى ، فأسرع يدني شفتيه من جنة يشتاقها و....

لكن يدًا قاسية مدت نحوه لتنتزعه من ملابسه وتبعده عنها بعنف وصوت غاضب يصيح : ماذا تريد منها؟

ارتبك وتلعثم قائلا : لا شيء .. فقط هي تذكرني بطفلتي المفقودة .

قالها وخلّص ملابسه من بين يد الآخر وأسرع بالانصراف.

فنظر ذلك الشاب إليها سائلا باهتمام : هل أنت بخير؟

لم تُجب ، فذهب عنها ناصحًا إياها بألا تترك الأغراب يلثمونها أبدا .

ابتعد ..لكن ابتعاده صـار اقترابًا ، وتحولت نظراتها الطفولية إلى وجيب يدق بقلبها وعينيها ويلحق به صـارخًا أن ينتظر، أن يعيد على سـمعها عبارات الاهتمام وأن يظل يروي ظمأ قلبها بحنانه .

ومنذ تلك اللحظة عرف قلبها الصـغير ذو الخمس سـنوات أن هناك في هذا الكون مخلوقًا رائعًا يسمى الحب.

" انفصل التوءم ، وصار التصاقهما فراقًا ، وانطفأت ضحكة عيونهما فأصبح لهوهما تيهًا لا انطلاقا . "

"الخروج"

فراشتين تقفزان بين الحقول كانتا، تتشابك أصابع يديهما الصغيرتين كموطن يلجآن إليه كلما قسا أحدهم منتهكا سرورهما.

هاتان مريم .

الاسم نفسه تحملان ، والبراءة نفسها، تُعرفان في البلدة الصغيرة بالتوءم رغم أنهما مجرد جارتين ، لكن التصاقهما دوما وحبهما الذي يبدو جليا لباقي أطفال القرية صار دافعا لإطلاق ذلك اللقب على كلتيهما.

مريم ذاتا السنوات الخمس، تصحبهما الزقازق إذا ما انطلقتا صباح كل يوم تشاكسان الطيور وتلهوان مع أبي قردان وتطاردان الضفادع على ضفاف الترعة ، وتعودان منهكتين بعد الظهيرة لتلبي كل منهما نداء أمها لتناول الغداء ثم لا تلبثان أن تلتقيا من جديد بالشارع المتسع فتضعا خطة جديدة للهو لا ينتهي.

واليوم طال لهوهما معا، ما عاد أحد من الأطفال يبين بالشارع ، فقد بدأت شمس قريتهما بالمغيب وتوسدت السماء عين الشفق ، أخذت كل منهما فورة الانطلاق فما شعرتا بمرور الوقت .

وكعادتهما تتقاسمان كل شيء حتى الشعور بالجوع والعطش ، الآن تشعر إحداهما برغبتها في التغوط وتخبر صديقتها فتمسك الأخيرة بطنها معلنة الرغبة نفسها ، تنظران حولهما ..ماذا تفعلان ..هل تسرعان كل إلى بيتها فتقضيان حاجتيهما ؟

لكن الأولى تصرخ في ألم ..لن تستطيع التماسك حتى تصل إلى بيتها ، فتنظر الأخرى حولها في حيرة وتبصر أحد البيوت المهجورة والذي يقصده أطفال القرية من الذكور فقط لقضاء الحاجة إذا ما داهمتهم وهم يلهون في الشارع ، فأشارت مريم إلى صديقتها مقترحة أن تقضيا فيه حاجتيهما ، استنكرت الأخرى خشية أن يراهما أحد فطمأنتها الأخرى بأنه لا أحد يسير.

بتردد تتجهان نحو البيت المهجور ممسكتين بكفيهما وكأن كل واحدة تستمد الشجاعة من صديقتها ، تتواريان خلف كومة من التراب وتشمران عن ملابسهما الداخلية وتجلسان القرفصاء متقابلتين لتقضيا حاجتيهما.

يمر الوقت ، وتنسى الطفلتان ما هما به ، يأخذهما الحديث والضحك وتبادل الحكايا ، حتى فرغت حكاواهما ، وحانت من إحداهما نظرة فضولية نحو عانة الأخرى ، مالها لا تشبهها كثيرا ؟ كيف تختلف عنها وهي صديقتها ؟ تلفت نظر صديقتها إلى ذلك الاختلاف ، فتسألها الأخرى مستنكرة : كيف؟ فتمد الأولى أصابعها وتشير إلى موضع الاختلاف ، لكن إصبعا يطول فيلمسها؛ لتضحك صديقتها هاتفة : أنت تدغدغيني .

تتصاعد ضحكاتهما مع اكتشافهما أن ذلك المكان مصدر لدغدغة تسعدهما ، فتنطلق الأصابع عابثة وتعلو الضحكات والشهقات سعيدة فرحة. لا تدركان كم استمر عبث أصابعهما ، لكن صرخة مستنكرة تشق عباب ضحكاتهما ، وسؤالا مستهجنا من طفلة تكبرهما بخمسة أعوام : كيف تفعلان ذلك معا؟

وتصم كلمة قاسية آذان الطفلتين باتهام أصابهما بالوجوم. لتسرع الطفلة الكبرى تغادرهما وهي تهتف كأنها تنادي أطفال القرية لتعلمهم أن مريم ومريم تفعلان ما تفعلان بنفسيهما. تسكن عيونهما صدمة ..ماذا تقول تلك الغبية ، بل ماذا تعني كلمتها تلك؟ تفيقان من ذهول أصابهما فتقصدان لارتداء ملابسهما السفلية وقد أحستا بأن في الأمر كارثة ، ربما لا تدركان كنهها لكنها حتما كارثة.

وقبل أن تنتهيا من ارتداء ملابسهما كانت أم كل منهما تقف ضاربة صدرها وتمسك بابنتها متفحصة إياها ، حتى إذا اطمأنت ، سحبت كل منهما حذاءها البلاستيكي وانهالت على ابنتها ضربا وركلا وسبا.

كم مر منذ تلك الواقعة ...أسبوع وربما يزيد، قضته كلتاهما حبيسة بيتها لا تعرف عيناها للشارع سبيلا. وعندما أُفرج عنهما وسط تعليمات مشددة لكل منهما بألا تكلم الأخرى ولا تلهو معها وإلا كان العقاب وخيما ، كانت نظرات الحسرة والخجل حديثهما الوحيد ، وإذا نسيت إحداهما وحاولت أن تقترب من الأخرى أفاقت على همسات وغمزات الأطفال من حولها فارتدت معرضة.

انفصل التوءم ، وصار التصاقهما فراقًا ، وانطفأت ضحكة عيونهما فأصبح لهوهما تيهًا لا انطلاقا .

سنتان مرتا ولم تنس القرية ، صار اسم كل منهما يقترن بالحكاية إياها ، فازداد نأيهما كلما زاد إدراكما ووعيهما بمعنى ما قيل ويقال.

واليوم تهجر أسرة إحداهما البلدة لتستقر في المدينة بعدما نقل رب الأسرة مكان عمله إليها .

ويأخذ الحنين الطفلة نحو توءمها ، كيف تهجر القرية ولا تودع صديقتها التي لم تحب أحدًا مثلما أحبتها ، حاولت أن تطلب من أمها أن تذهب إلى بيت صديقتها لتوديعها ، لكن ترددًا أصابها عندما تخيلت ما يمكن أن يحدثه مجرد ذكر اسم صديقتها أمام أمها، وهي التي مكثت سنتين تحاول أن تمحو ذكرى ذلك اليوم من عقل أمها ، لكنها كانت دائما ما تلمحه في نظراتها المريبة إليها كلما فُتح حديث من قريب أو بعيد يشبه ما حدث ، بل ظلت تلك الريبة تحاصرها حتى إذا حان مشهد رومانسي في أحد الأفلام ، وكأنها صارت بين عشية وضحاها لعوب القرية التي لا تأمن أمها عبثها .

أعرضت عن فكرتها وطأطأت رأسها وهي تسير بين أسرتها مارة على البيوت ليودعوهم ، كل البيوت ودعوها عدا بيت صديقتها ، ربما اكتفت أمها بهز رأسها لأم صديقتها فبادلتها الأخرى نفس الهزة وكأنها تتفهم عدم إقدامها نحوها ، ثم تدلف إلى بيتها مسرعة بينما مازال كلٌ يقف أمام بيته مودعًا. تجاوزت أسرة مريم بيت صديقتها وكادت تغادر الشارع بأكمله ، إلا أن نظرة أمل أخير تحين من الطفلة نحو بيت صديقتها فتفاجأ بها واقفة خلسة تنظر نحوها وقد أغرقها الأمل نفسه.

توقفت مريم عن السير لوهلة وتسمرت مكانها ورنت بنظرة وداع يحدوه ألم وحسرة نحو صديقتها ولم تلبث دموعهما أن انهمرت معًا في اللحظة نفسها، ولآخر مرة تتشاركان أمرًا واحدًا .

لكن يدًا غليظة تمسك بمريم جاذبة إياها بقسوة ، لتستدير رغمًا عنها وتتوارى بين أسرتها مغادرة الشارع .

" لعامين متتابعين أمُر بالمشهد نفسه أثناء زيارتنا السنوية لمولد سيدي "أبوالحسن" ، هكذا أسمع أمي تطلق عليه "

"الكشك الخشبي"

الكشك الخشبي الضيق ، طابور الفتيات الصغيرات اللائي يرتدين فساتين وجلابيب بيضاء ، أصوات الذاكرين تعلو على صراخهن خلف القضبان الخشبية فلا يصل إلى مسامعي اللاهثة منها شيء، الأمهات المترقبات والحوارات المترددة .

لعامين متتابعين أمُر بالمشهد نفسه أثناء زيارتنا السنوية لمولد سيدي "أبوالحسن" ، هكذا أسمع أمي تطلق عليه ، تتشبث أصابعي الصغيرة بكفها وأتساءل عما تفعله هؤلاء الصغيرات وما يدور بين جنبات الكشك ، يلوح شبح ابتسامة على ثغر أمي وتجيب باقتضاب:

"كبروا بقى..عقبالك "

فتثير إجابتها في نفسي أسئلة أكثر، تسارع هي بملاحقتها قبل أن تولد على شفتي.

سوف أقف معهن يومًا وأرتدي فستاني الأبيض وسوف تأتي جدتي من البلدة خصيصًا لزيارتي ، ومعها بطة مسلوقة وكسكسي ...وستكون أكبر قطعة في البطة من نصيبي ..هكذا وعدتني أمي .

صرت أمر على طابور الفتيات مبتسمة ..متى يحين دوري لأقف بينهن وتنفذ أمي وجدتي وعدهما.

اليوم أتممت العاشرة ، وبلغت نصاب طابور الفتيات ، أقترب ومعي أمي لأقف في الصف ، لكن ما لهن يبكين بخوف متوسلات إلى أمهاتهن ألا يدخلن الكشك ؟

ساورني القلق فاختفت ابتسامتي وتصلبت عيناي على مدخل الكشك الذي تسده ستارة سميكة تخفي ما يدور داخله ، ولأول مرة تصل إلى أذني صرخات وتوسلات من دخلت، أنظر إلى أمي برعب فتطمئنني بقلق لا يغادر عينيها .

ارتفع صوتي بالبكاء ، طلبت منها أن تعيدني إلى البيت فما عدت أريد البطة والكسكسي ، وما عدت أريد رؤية جدتي نفسها .

"متخافيش ..كل البنات الحلوين لازم يتطاهروا" قالتها أمي ورددتها تلك المرأة السمينة الواقفة إلى جوار فراش صنع من أقفاص الفاكهة ووارت خشباته مرتبة مهترئة ، بينما اكتفت امرأة أخرى أقل منها حجمًا بهزرأسها مؤمّنة .

أهذا كل ما يوجد خلف تلك الستارة ، فلماذا إذن خرجت الفتيات قبلي ملوثة ملابسهن بالدماء ؟

وفجأة حملتني المرأة السمينة وطرحتني فوق الفراش بحزم ، ثم نظرت إلى الأخرى نظرة ذات مغزى ، وأمرتني في لهجة حاسمة بأن أخلع ملابسي السفلية ، التفتُ إلى أمي بهلع فأشارت إليّ بأن أفعل وهي تجاهد لتبدو هادئة . هجمت عليّ المرأة الأخرى وفرّقت بين فخذي وكبلت ساقي بكلتا يديها لتجبرني على فتحهما ، واقتربت السمينة حاملة زجاجة و مقصًا صغيرًا بدا لي بلمعته

تحت ضوء متسلل من فتحات الكشك كنصل سكين كبير ، اقتربت مني وهي ترسم على وجهها ابتسامة صفراء .

أغلقتُ عيني وانهرت في الصراخ وأنا لا أدرك ماذا ستفعلان بي ..بل ماذا سيفعل بي ذلك المقص .

أمسكت بذراع أمي التي اقتربت مني لتكبل يدي، عدت أتوسل إليها أن تنقذني فأشاحت بوجهها عني مخفية دمعة خانت عينيها.

أحسست بسائل يرش عليّ ، فتحت عيني لأبصر أصابعها القابضة على المقص تدنيه مني وكأنها أسد جائع يكشر عن أنيابه ويبغي التهامي . حاولت التملص فعاجلتني بصفعة قوية جعلتني أرتد مستسلمة ، ولم تكد تمر ثوانٍ حتى شعرت بألم شديد وكأن أحدهم ينتزع عيني .

هذه المرة شاركتني أمي الصراخ هاتفة بالمرأة :

_ كل ده دم ..بنتي بتنزف.

صاحت بها المرأة ذات المقص بعنف قائلة :

_ متخافيش ..ده من كتر خوفها وهيقف حالا.

لم تقتنع أمي بقولها فراحت تندب حظي العاثر بينما راحت المرأتان تقصفان عليّ من قطع القطن دون فائدة ، حتى صرخت إحداهما بأمي أن تتصرف في قطعة قماش كبيرة لإيقاف سيل الدماء ، التفتت أمي حولها في حيرة ثم راحت تخلع عباءتها وتمزقها لقطع كبيرة لتضعها المرأة فوق جرحي . كم مر من الوقت حتى توقفت الدماء ..لا أدري ..فقد حاولن جعلي أقف على

قدمي بعد أن لففن الكثير من القماش حولي هاتفة بي إحدى المرأتين وهي تتنفس الصعداء :

_ الحمدلله بقيتي كويسة ..بس ابعدي رجليكي عن بعض وانت ماشية .

ثم أشارت إلى أمي إشارة حاسمة فدست في يدها بعض النقود. ربتت أمي على كتفي وبعينيها مازالت ترقد الدموع ، حدجتُها بنظرة لائمة فتمتمت مرددة:

_ معلش ..كل البنات الحلوين لازم يتطاهروا.

" كان لسؤالها وقع الصاعقة في نفسها ..أمي ؟ كيف ؟ عقدت حاجبيها في غضب وهتفت: لا ..مستحيل أن أخبرها.."

"بلوغ"

اتسعت عيناها دهشة عندما أبصرت تلك القطرات الدموية خارجة منها ، وما لبثت دهشتها أن تحولت لرعدة مصحوبة بألم .

هي تعرف جيدًا سبب تلك الدماء ، قرأت عنها كثيرًا وربما أصغت يومًا لثرثرات خافتة بين صديقاتها يهمسن بها في خجل مذهول وهن يشرن بأصابع واهية نحو إعياء إحداهن ، ومنذ ذلك الحين وهي تنتظر دورها في صفوف وجلة .

تعرف ، لكنها تأبى أن تصدق ، ولِم تفعل وهي لا تدري ما ينتظر سنوات ما بعد البلوغ ، بل ما ينتظر أيامًا قادمات .

لملمت خجلا تساقط مع قطراتها ، وتحاملت حتى دلفت إلى غرفتها ، جلست تفكر في سر أسرارها ، من تودعه إياه ، صديقتها ، وحدها من يمكنها إخبارها.

ابتسمت في خجل، هكذا استقبلت صديقتها التي تكبرها بثلاث سنوات خبر دخولها عالم النساء .

لكنها سارعت تسألها بلهفة : هل أخبرتِ أمك؟

كان لسؤالها وقع الصاعقة في نفسها ..أمي ؟ كيف ؟ عقدت حاجبيها في غضب وهتفت: لا ..مستحيل أن أخبرها..

صاحت بها أنها لابد أن تفعل وإلا فستخبرها هي .

توسلت اليها ألا تخبرها ، هي لا تريدها أن تعرف ..ولِمَا..لا تدري.

عادت لتتوسل إليها ثم انصرفت عنها غاضبة .

عندما اقتحمت عليها أمها الحجرة والضيق يرتسم على وجهها ، أيقنت أن ما خشيته قد حدث.

" لماذا لم تخبريني ..كيف أعرف أمرًا كهذا من صديقتك؟"

أهذا كل ما يعنيها ويشغلها...

أشاحت بوجهٍ عبث به الخجل وخيبة الأمل ، ولم تُجب.

أفاقت على صوت الباب يغلق وقد غادرتها أمها.

هالها أنها لم توجه لها نصحًا واحدًا ولم تطمئن خوفها.

تزاحمت الدموع بعينيها ولسانها يلهج باسم صديقتها في انهيار.

" هنا همست لنفسها بسعادة غامرة : هكذا صرت طبيعية

..هكذا أستطيع أن أحيا بين الناس."

"الآخرون"

انسلت من بين الجموع وهي تواري خجلًا سكنها ، ولم تُعر اهتمامًا لصيحات صديقاتها الدهشة والهاتفة باسمها أن ارجعي.

كادت أن تستقل إحدى عربات الأجرة لكنها عدلت عن الفكرة عندما تذكرت كم من العيون التي يمكن أن تتفرس فيها، فكان قرارها بأن تقطع المسافة بين بيت صديقتها وبيتها مشيًا على القدمين، وراحت تختار أكثر الشوارع هدوءًا وأقلها ارتيادًا من قِبل الناس.

ها هو البيت يلوح إلى عينيها ، تنفست الصعداء وهي تقطع السلم قفزًا ..أخيرًا سأدلف إلى حجرتي حيث لا أحد غيري .

وقفت أمام باب شقتها ، دقته بأصابع لهفة، وانتظرت .

قطع لهفتها صوت صائح " أهذا أنت يا سهيلة ..كم أوحشتني".

التفتت لتجد جارتها التي تركت منزلهم لتسكن منطقة أخرى منذ شهور ..ما الذي جاء بها ثانية ؟ ربما اشتاقت لصديقات العمر.

رسمت ابتسامة مجاملة بدت مفتعلة ، وهي ترد سلامها .

لكن المرأة الأربعينية لم تكتفِ بالسلام بل وقفت تسألها عن أحوالها ودراستها وكيف تبدو مرحلة الإعدادية معها و..و...

أحست بالضجر ولم يغب عن عينيها أن تظهراه جليًّا في زيغانٍ هنا وشرودٍ هناك ، حتى كان صمت المرأة .

حاولت أن تستأذن إلى أن حانت من المرأة نظرة ذات معنى تجاه ثدييها اللذين يحاولان الإعلان عن مقدميهما إلى خريطة جسدها الصغير.

ها هو ذا ما خشيته ، وكعادتها غزاها خجل مرتعب وكأن عارًا يلاحقها .

وربما كان خجلها هذا إيذانًا للمرأة بأن تتمادى ، فأشارت إلى ثدييها وهي تغمز في خبث قائلة بمرح طفولي " ها قد صرنا آنسات جميلات .."

كادت تصفعها على وجهها صارخة ، لكن صوت باب شقتها وهو يفتح كان قارب النجاة لكلتيهما.

تركت أمها تكمل الثرثرة معها وانطلقت نحو غرفتها وكأنها تأوي إلى جبل يعصمها من الطوفان.

أحكمت غلق بابها ووقفت أمام المرآة تنظر إلى ثدييها في فزع :"إلى متى ستظلان سببًا في أن تلاحقني عيون وثرثرات الآخرين ..نساءً وشبابًا وحتى أطفالًا "

لم يطل تساؤلها ، تجردت تمامًا من ملابسها وسددت إلى ثدييها الصغيرين نظرة حاقدة ، ثم أمسكت بأحد الإيشاربات ، طوته لطبقات طولية ثم أحاطت به ثدييها وربطت طرفيه على ظهرها ، ضيقته أكثر فأكثر حتى تساوى ثدياها بكتفيها ..هكذا اختفيا تماماً .

زفرت بارتياح وراحت ترتدي ملابسها باسمة وازدادت ابتسامتها عندما أكدت لها مرآتها أنهما لم يعد لهما أثر فوق صدرها .

هنا همست لنفسها بسعادة غامرة : هكذا صرت طبيعية ..هكذا أستطيع أن أحيا بين الناس.

" التصقت بالحائط وكأنها تود لو ابتلعها، قدمًا تقدم وأخرى تؤخر، ونداء يستجديها أن عودي أدراجك."

"إيواء"

شعرت برعدة تصيب جسدها وتبتلع ما تبقى من جرأة تدَّعيها، حاولت عيناها أن تتجاهلا وجوده، فانسلتا بعيدا لكن توترًا رغمًا عنها بدا واضحًا في ارتعاشة أهدابها.

التصقت بالحائط وكأنها تود لو ابتلعها، قدمًا تقدم وأخرى تؤخر، ونداء يستجديها أن عودي أدراجك.

بمجرد أن رآها سكنت عينيه لمعة ذات مغزى ، هو ذا ذلك الجسد الفتي، ابنة الثانية عشرة التي تنضح أنوثة عشرينية ، تلك المختلفة عن كل من يعرف ..تلك ابنة المحترمين ، لطالما تمنى لو لم تكن كذلك، لو لم يكن مجبرًا على احترامها.

أحس برجليه تزدادان ترنحًا، اليوم زاد الجرعة عن أي يوم ، حاول أن يتغاضى عن وجودها أمامه، لكنها قادمة وما عاد يستطيع تجاهل ما يرى .

بدا نهداها الثائران لعينيه الزائغتين كميناء نجاة لأحلامه التائهة، كم حلم أن يسكن بينهما.

ازدادت ارتعاشة جسدها وهي تلمح تلك النظرة الشبقة في عينيه، علا صوت تنفسها وقد أيقنت أن الأمر اليوم مختلف.. فقررت الفرار حتى لو اضطرت لهجر وقارها.

لم يعد يفصلها عنه سوى متر أو مترين ..ابتعدت عن الحائط وانحرفت فجأة بعيدا ثم أطلقت لقدميها العنان.

ظلت تركض وسط خيبة أمل أصابته وسمرته مكانه، حتى وصلت إلى ذلك المبنى المتهالك المكون من طابق واحد، دلفت من بابه ولأول مرة بدت لها رائحته الكريهة منقذة لا منفرة.

أسرعت نحو باب يتوسط ثلاثة أبواب متجاورة تعلوها أقفال موصدة. تناولت من جيب جلبابها المنزلي مفتاحًا صغيرًا فضّت به ثقب القفل ودخلت .

أحكمت غلق الباب في خوف ، ثم هدأت قليلا وراحت تزيح عنها ملابسها السفلية لتقضي حاجتها على عجل وهي تدعو الله سرًّا ألا تجده واقفًا في طريق عودتها.

لا تدري لِمَ أحست بأن وراء باب الحمام أحدًا، للحظة أحست بأنها تسمع وقع أنفاسه، توقفت عن إزاحة باقي ملابسها ، أسندت ظهرها للحائط الجانبي وراحت بحرص تعيد ما خلعته وعيناها مركزتان على الباب.

واتتها فكرة جريئة ، فاقتربت بحرص من الباب وانحنت فجأة وقد ألصقت عينها بتلك الفتحة التي تعلو الأكرة..وهالها أن تصطدم عينها بعين أخرى مثبتة على الفتحة من الخارج، وقد صُعق صاحبها عندما فوجيء بعينها فأسرع هاربًا.

اعتدلت واقفة وأمسكت بقلبها الذي كاد يتوقف خوفًا، وعندما اختفى وقع خطواته غادرت الحمام وأسرعت تعدو عائدة إلى تلك الطرقة التي تحوي غرفًا منفصلة تؤوي كل منها أسرة كاملة كانوا يومًا يسكنون بيوتًا آدمية قبل أن يسقطها الزلزال ويُجبروا على سكنى تلك الإيواءات . وحينما سألتها أمها عن سر توترها أجابت وهي تخفي دمعة مقهورة ...لا شيء.

" فتحت عينيها قليلا ليصدمها وجهه حاملا ذكريات بغيضة دارت رحاها فوق سني عمرها التي تجاوزت الثلاثين"

"عطش"

أغمضت عينيها لتدفن بينهما صورته وقد أخذته فورة جسدها ،فراح يروي عطش رغبته في حماس ألهبها.

أخذت تئن تحت شبقه ،وارتسمت فوق وجهها ابتسامة مستمتعة ..

كم من الزمن مَر منذ آخر مرة لبت فيها نداء جسدها ...ربما عام أو عامان ...هي لا تذكر.

فتحت عينيها قليلا ليصدمها وجهه حاملا ذكريات بغيضة دارت رحاها فوق سني عمرها التي تجاوزت الثلاثين قليلا ولم تستطع بعدُ التحرر من ربقته.

تساءلت في استنكار...كيف تتركه يلجها بعد ما أذاقها من هوان ؟

كادت تخلص جسدها من تحته ،لكن حركتها أثارته أكثر،

فزاد من هجومه ،حتى أطلقت صرخة مستلذة ،وراحت تحرر باقي جسدها من أغلال ملابسها ليسقط عنها استنكارها ويتبدل رغبة تملكتها فاتخذت وضعًا مثيرًا ونسيت غضبها.

" فربّت عليها بحنو وابتسم في رقة واحتلت عينيه نظرة رجاء، فخفضت هي عينيها في استسلام خفي. "

"حائرة"

غزت وجهها حمرة محببة، أضفت على خمريته سحرًا خاصًّا، وراح قلبها يرتعد فرحًا، بينما مازال كفها يرقد بين أصـابعه مسـتكينا هائما بين كلمات تتدفق إلى أوردته فتبعث نبضًا غاب عنها سنوات وسنوات.

أهذا هو الحب؟ لابد أنه هو، ابتسمت للفكرة وتنهدت في شوق.

كادت تذوب، تغيب عن عالمها الواقعي إلى دنيا تمنتها ،لولا يده التي أفلتت كفها لتتسلل في جرأة حذرة نحو خصرها، هالتها المباغتة فلم تتملص، تخلت يده عن حذرها وتملكتها أكثر، هنا قاومت، فربّت عليها بحنو وابتسم في رقة واحتلت عينيه نظرة رجاء، فخفضت هي عينيها في استسلام خفي.

ضمها إلى صدره بقوة فسقطت من عينيها نظرة يائسة واختفت تلك الحمرة فوق وجنتيها، ليكسوهما جمود لم تحركه لمساته الظمأى.

فوجئت بنفسها تقابل شهوته بشهوة مماثلة وكأن روحًا غانية تسكن جسدها، وحين انفضت الرغبة في صدرها لم تنس أن توسد قلبها مقبرته الأبدية ،وتبتسم في مرارة و... وتنصرف .

" رسمت فوق شفتيها ابتسامة زائفة وأشاحت بعينيها بعيدا وقد سكنتهما خيبة أمل جاهدت لتخفيها."

"رغبة"

أسـدلت رداءً شـفيفًا فوق جسـدها علّه يسـتر رغبة مازالت تتأجج بين ضـلوعها ،بينما راحت عيناها ترقبان جسـده الممشـوق وقد نهض عنها بعدما أنهكه طول الركض بين ذراعين لم ينالا ما يتوقان .

رسمت فوق شفتيها ابتسامة زائفة وأشاحت بعينيها بعيدا وقد سكنتهما خيبة أمل جاهدت لتخفيها.

كم من الوقت اسـتمر دبيبه داخلها ..ربما أكثر مما ينبغي ،لكن طول الوقت وحده لم يكن ليروي ظمأ روحها.

جالت أصـابعها تلمس جسـدًا بضـًّا مازال يثور سـخونة كأنه لم يطأ ، أحاطت بكفيها ثديين لم يغادرا رافعتهما رغم فورانهما وحجمهما الشهي.

كادت أن تتمادى لتطفيء نارهما ،إلا أن يأسًا أحاطها ، وكعادتها حاولت أن تنسى ،نظرت نحو التلفاز، لتفاجيء عينيها قبلة ساخنة لطالما تمنتها.

رفعت إصـبعا نحو شـفتيها المكتنزتين لتكتشـف أن طلاءهما لم يمسـس بسوء.

أدارت وجهها بعيدا وقاومت دمعة تعبث بمقلتها ،ثم مدت يدًا مشـمئزة تمسح خيطًا من مائه سال على فخذها. وعادت لتبتسم في وجهه برضا.

" كانت لمساتها ونظرات عينيها تمتلىء عطشًا ، أجفل وقد تذكر أول امرأة أغرقته في عالم السعادة ، وكأنها اللمسات نفسها التى طالما انتظرها ، هل وجدها أخيرًا ، أتكون هي؟"

" الضحية"

من بين دموع تنســـاب في وهن رنت إليه بعينين تفوحان إغراءً ، فجأة انسلت كل حكايات الأسى من بين يديها ويديه وحلَّت مكانها لحظات أمل .

تركت لجسدها البض العنان ليتلوى ببطء متعمد فوق ذلك الشزلونج، بينما أخذت أصــابعها تغزو خصــلات شــعرها في حركات تنبض إثارة ، وافتر ثغرها عن بسمة نداءٍ ملهوف.

عقد حاجبيه قليلًا وهو يرى ذلك التحول ، حاول أن يخفى اضــطرابه ، تماسك قليلا، أغلق ذلك الكتيب على ملاحظاته ، واعتدل في تأهب .

في ثوانٍ أدارالأمر في رأســه واســتدعى كل ما حكته ، إذن فقد قررت أن تجعلني ضحيتها التالية ، لكنني طبيبها ، حارس مقبرة أسرارها و.....

اعتدل أكثروقد رآها تزيد من إغوائه .

رسم بسمة جامدة على وجهه وقال ببطء :

_ أنتِ حقًا جميلة لكنني لا أريدك.

ضغط على حروف كلمته الأخيرة فغزا الغضب وجهها الجميل ، وما لبث أن تحول لضــحكة عابثة وهي تميل إلى الأمام في حركة تُظهر جمال نصــفها العلوى، هامسة في دلال :

_ أمّا أنا فأريدك ..وهذا يكفي .

قالتها وتسللت أصابعها نحو صدره وعيناها تسددان إليه نظرات لعوبًا

.

انتفض من لمسات يدها وحاول أن يتجنب تماديها ، إلا أن إصرارًا سكنها ؛ فلم يجد بدًّا من تغييردفة الأمر ففاجأها بسؤال توقفت على إثره لحظة، ثم أدرك ذكاؤها هدفه فعادت إلى محاولاتها.

كانت لمساتها ونظرات عينيها تمتلىء عطشًا ، أجفل وقد تذكر أول امرأة أغرقته في عالم السعادة ، وكأنها اللمسات نفسها التى طالما انتظرها ، هل وجدها أخيرًا ، أتكون هي ؟

ظل مجفلا حتى أنه لم يتمالك نفسه وترك أصابعها تكمل طريقًا أفسحته رغبة ولدت بين ضلوعه.

سقط كتيب الملاحظات من بين يديه لتتوليا مهمة أخرى أكثر أهمية .

" وكعادتها ،أحست بارتباك يغمرها ،فأسدلت جفنيها وانسحبت بنظراتها بعيدا عن سهميه ."

"الرقص على أذرع باردة"

لحظات من التيه تنتابها كلما نظرت إلى عينيه ، يأخذها بريق يصرخ بما يخفيه قلب يعز على البوح ؛ فتسكنها رغبة جامحة في الإبحار بين أمواج تلك العسليتين ،وما من شيء يهم، حتى لو ضاعت بين ضفتيهما .

وكعادتها ،أحست بارتباك يغمرها ،فأسدلت جفنيها وانسحبت بنظراتها بعيدا عن سهميه .

توارت خلف ضحكة مرتعدة لكنها بدت ساحرة ،فازداد بريق عينيه ورماها بنظرة شهية لم تستطع الصمود طويلا أمامها.

ما له اليوم يبدو مشتاقًا ،ما لعينيه تحاصراني في شغف وإصرار، آه ..كم أحلم بلحظة بوح واحدة منه..حتى لو كانت آخر لحظات العمر.

لا تدري لِم أحست برغبتها في أن ترقص أمامه، وهي التي لم ترقص لرجل قط .

ربما رغبت في أن تخلص نفسها وتخلصه من تلك الحواجز بين قلبيهما ، مسافة من الخجل والصداقة المزعومة أرادت أن تمحوها، وماذا غير الرقص يمكنه أن يفعل.

تمايلت في دلال أدهشها قبل أن يذهله، تساقط خجلها من بين ذراعين انطلقا يلهوان في الهواء بحرية ،وخصر كأنه خُلق ليشعل الرغبات في الصدور.

هكذا ظل مشـــدوهًا ، تهرول عيناه بين مفاتن أبرزها الرقص وأججها الدلال أكثر.

ســقطت بين ذراعيه في تعب ، وابتســمت في شــوق ، فلم يكن بدٌ من أن تنال حلمًا طال انتظاره .

غابا في قبلة طويلة ، توقف خلالها الزمن وكأنما يُعاد خلقه من جديد.

انتزعها من حلمها فجأة ،وابتعد عنها .

نظرت إليه في تساؤل عاتب، فسدد إليها نظرة جامدة وبدا كأنما يتمالك نفسه، وقال بحسم:

_ مازلنا أصدقاء .

" بابتسامة تلوح بين اليأس ردت إحداهما تساؤل صديقتها ، خفضت عينًا لم يهجرها الجمال بعد، رغم إشراف صاحبتها على الأربعين ، وقالت في محاولة لإخفاء نبرة حزن دفين : كما أنا ."

"كلتاهما"

صدفة هي ، تلك التي جمعت شتات الفتاتين من بعد سنين طالت في البعد . كان اللقاء حارًا ، ربما ساعد على عِظم مودته أمر خفي جمع بينهما ، لم تدركاه ، لكن قلبيهما لمساه بوضوح.

كان السؤال جليًا في العيون ولم تستطع الألسن إخفاءه : هل تزوجتِ؟

بابتسامة تلوح بين اليأس ردت إحداهما تساؤل صديقتها ، خفضت عينًا لم يهجرها الجمال بعد، رغم إشراف صاحبتها على الأربعين ، وقالت في محاولة لإخفاء نبرة حزن دفين : كما أنا .

قالتها وشردت ممنية نفسها بألا تسمع منها تلك النصائح التي اعتادت سماعها من كل امرأة تراها تلك البلهاء التي لم تستطع أن توقع عريسًا حتى الآن رغم جاذبيتها.

أحست الأخرى بمرارة صديقتها ، فمطت شفتيها بحيرة وكأنها لا تجد ما ترد به إليها كبرياءها ، فأشاحت بوجهها مغمغمة : كله نصيب.

حاولت الأولى أن تزيح ما اعترى كلتيهما من بؤس خيَّم على سعادة اللقاء ، فضحكت متسائلة وهي تنظر إلى أصابع الأخرى بمرح : وأنتِ ؟ سمعت أنك على وشك الزواج أو تزوجتِ بالفعل؟

ابتسمت بسخرية وأجابتها : تزوجت وأنجبت طفلين وانفصلت.

اتسعت عينا الأخرى صدمة ، لكنها أسرعت تواسيها بكلمات لم تقتنع هي بها ، ثم صمتت فجأة وتمتمت بأسى واضح : صدقيني أنتِ أفضل كثيرا ممن لم تتزوج بعد، على الأقل أصبح لديك أطفال، ولم تعودي وحيدة . قطبت الأخرى حاجبيها ولم تدرِ بِم تجيبها ، لكنها اكتفت بهز رأسها بحيرة ، بينما شردت بعيدا فيما تكابده من مسئولية أطفالها ، وتخلي الطرف الآخر عن مشاركتها إياها ، تذكرت كم من الشباب تقدموا للزواج بها وكان الرد هو الرفض ؛ فلا سبيل للمفاضلة بين أطفالها وسعادتها كأنثى ربما لم تحيا بعد . كادت أن تخبر صديقتها بأن الواقع يؤكد أنها الأكثر حظًا منها ، وهي العذراء التي لا تجر خلفها زوجًا من الأطفال، أن هناك يقبع دوما الأمل في زواجها ، أما هي فلا أمل في ارتباط ولا سعادة في مسئولية فُرضت عليها وحدها .

لكنها تراجعت عن نيتها ، واكتفت بابتسامة لا تعني شيئا ، وودعتها في هدوء ،

وكل منهما تحمل للأخرى نظرة ذات مغزى.

" ارتسمت فوق وجنتيه ابتسامة جوفاء ،ومد إليها يده مسلما ، غاص كفها بين أصابعه وأجفلت في شوق، وكأنها تحتضن بأناملها سنين عشرًا مرت."

"لقاء"

للحظة توقف الزمن بعينيها ، ارتعدت كورقة ، ثم حدقت إليه في غير تصديق ...

أهذا أنت ؟!

ارتسمت فوق وجنتيه ابتسامة جوفاء ،ومد إليها يده مسلما ، غاص كفها بين أصابعه وأجفلت في شوق، وكأنها تحتضن بأناملها سنين عشرًا مرت .

هالها ألا تلمس اللهفة نفسها في يده ، حدجته بنظرة فزعة فبادلها بأخرى لامبالية .

سحبت كفها من بين برودته، وهزت رأسها في تفهم..

واغتصبت ابتسامة جاهدت لتبدو رقيقة ...ثم انصرفت.

" سحبت ابتسامتها بارتباك ومعها سحبت كفها من كفه، وعادت إلى صديقاتها تشاركهن المرح."

"سلام"

كان لطلته وقعٌ مختلف في نفســـها ..ربما جرأة نظراته ودفئها معا كانا سببًا في إحساسها بتلك الألفة غير العادية ، أقبل يصافحها بلهفة من يعرفها منذ سنين ، بودٍ كاد يتحول لعناق صافحها ،أجفلت في خجل مأخوذ وعيناها تتخفيان في ابتسامة واسعة .

"من تكون؟"

أفاقت على صـــوت أنثوي يســـأل في اســـتنكار، رنت بناظريها فإذا بفتاة تتعلق بذراعه بحركة مبالغة وكأنها أرادت إيصال رسالة بعينها.

ســـحبت ابتســـامتها بارتباك ومعها ســـحبت كفها من كفه، وعادت إلى صديقاتها تشاركهن المرح.

" لوهلة ظننت أنني لم أسمع جيدا ، وربما ظن الجميع مثلي ، فقد كانت آذاننا مشنفة وعيوننا شاخصة نحوها علنا نستوعب ما تقول"

" هي"

من بين أجساد متلاحمة تتسابق للاحتفاظ بتوازنها مع هزات وفرملات مفاجئة للمترو، جاهدتُ للوصول إلى باب العربة وأنا أمارس طقوسي المعتادة للتأهب للنزول.. محاولاتي المستميتة ألا يلامس جسدي جسد أخرى حد الالتصاق ، حقيبة يدي التى أضمها بقوة إلى صدري وكأنها طفلي الرضيع خوفًا من عابثة هنا وسارقة هناك، يدي اليمنى التي تمتد لتعدل من هندامي رغم قناعتي بفشل ما أفعل و.. وأخيرا وصلت للباب.

تأملت زجاجه الذي يعكس وجوها عابسة ومتأففة.

لم يكن وجهها من بينها ، لفت ناظري أسى يلف ملامحها وهي تقبض بيدها على طفلة لم تبلغ الرابعة بعد، تمتمات تصدرعنها في خجل ، وعندما اكتشفت أن أحدًا لم يسمعها عمدت إلى رفع صوتها، إلا أن الخجل لم يفارق نبراته.

"حد عاوز يمسح سلم أو ينضف شقة؟ "

لوهلة ظننت أنني لم أسمع جيدا ، وربما ظن الجميع مثلي ، فقد كانت آذاننا مشنفة وعيوننا شاخصة نحوها علّنا نستوعب ما تقول، كررت عبارتها وعيناها منكستان في أسى .

عندما أدركنا ما تقول، انسحبت بعض العيون عنها بينما سددت إليها أخرى نظرات مرتابة، ولم تلبث هي الأخرى أن انسحبت عنها بعدما اقتنعت بأن بالأمر احتيالا أكيدًا.

كنتُ الوحيدة التي أطلت النظر إليها علّي أجد ما يقنعني بصدق سؤالها ، وظنٌ يسكنني بأنها طريقة مختلفة للتسول ، هي قطعًا كذلك.

بدوري حولت عيني عنها ، خفت نداؤها، ومالبثتْ أن صـــمتت ، حانت منى التفاتة نحوها ، فرأيت خيبة أمل ممزوجة بحزن تخيم على عينيها.

أهي صادقة حقا؟ هل...

وهنا فُتح الباب ، نظرت إلى يأسـها بيأس مشـابه، وغادرت العربة وشـبح دمعة تهتز بعينها يراودني.

تســمرت قدماي أمام الباب وظِل رأســها المنكس يخبو رويدا رويدا بين تحرك القطار، حتى ابتلعته ظلمة القضبان.

زفرت في حزن وندم يعض على ضـميري ، هنا تذكرت ما جئت من أجله ، فنفضت عن عيني كل ما رأيت، وانسحب المشهد من تفكيري ، و...

وانطلقت إلى وجهتي.

" عاودتها تنهيدة معجبة للمرة الألف منذ بدأت القراءة وهمست وهي شاردة في ملامحه وكأنها تحاول استجلاء أعماقه عبرها " كم تبدو رائعا ..وكم أتمنى رؤيتك يوما"

" قناع"

لم تكد تنتهي من التهام صـفحات تلك الرواية حتى ابتسـمت في عذوبة ونظرت إلى غلافها الخلفي حيث تعلتيه صورة لرجل أربعيني تبدو على ملامحه سمات حزم تحمل طيبة مستترة.

عـاودتها تنهيدة معجبة للمرة الألف منذ بدأت القراءة وهمسـت وهي شـاردة في ملامحه وكأنها تحاول اسـتجلاء أعماقه عبرها " كم تبدو رائعا ..وكم أتمنى رؤيتك يوما"

قالتها وانتابتها رعشـة لذيذة أفاقت من لذتها على صـوت مذيع التلفاز يعلن بصوت جهوري "ومعنا الكاتب الكبير....."

لم تصـدق أذنيها واتسـعت عيناها لرؤية وجهه يحتل الشـاشـة بأكملها فتمتمت" يا الله ..هل تتحقق أمنيتي بتلك السرعة"

جلسـت وكلها انتباه يحدوه ذهول تسـتمع إلى صـوته الشـجي ،حتى كانت تلك المداخلة التليفونية من أحد قرائه يناقشـه حول فكرة إحدى رواياته واختلافه معها.

فجأة تحول الصـوت الشـجي إلى صـافرة إنذار لا تُبقى ولا تذر،وصـار الحوار الهاديء شجارًا صاخبًا .

بصـعوبة تمالكت فزعها ،أسـرعت تغلق التلفاز ثم حانت منها التفاتة حيث الرواية ، أمسكت بها بعنف و...

ومزقتها ثم ألقت بفتاتها بين سلة المهملات.

" وكأن حياة صاخبة دبت بوريدها الذابل وعانقت روحها البائسة."

" لقطة"

كان ليديه فعل السحر عندما تهويان في تدفق نحو خصرها الشهي ،فتحس وكأن حياة صاخبة دبت بوريدها الذابل وعانقت روحها البائسة.

تنسحب أصابعه في سلاسة معتادة نحو ردفيها فتغمض عينيها في وجل ثم تعود تلك الأصابع ثانية نحو الخصر وكأنه يتأكد من شيء ما.

يبتعد عنها في هدوء وعلى وجهه ابتسامة مجاملة ، ينظر إلى تلك المازورة بيديه في إمعان ويحدد رقمًا بعينه من بين أرقامها المتسلسلة ،يدونه في ورقة ترقد بين الكثير من التفاصيل فوق مكتبه ويغمغم قائلا :

_ لا تقلقي يا مدام ... سوف أصمم لك فستانًا رائعًا سيعجبك كثيرا .

" ها قد بدت شخوص تلك الصورة.. أدنتها إلى عينيها، وفجأة كأن بابًا وهميًّا انفتح في عقلها ليعيد كيانًا شردته الآلام إلى دنيا ولّت"

"صورة"

من بين تفاصيل كثيرة ترقد مستكينة في ذلك الدرج.. التقطتها، نفضت عنها غبارا مصرًّا وربما نفضت الغبار نفسه عن ذاكرة غائمة تغلف روحها.

ها قد بدت شخوص تلك الصورة.. أدنتها إلى عينيها، وفجأة كأن بابًا وهميًّا انفتح في عقلها ليعيد كيانًا شردته الآلام إلى دنيا ولّت وأيام كادت تنمحي من بين ضلوعها .

أصدقاء الجامعة، حديقة الكلية بهاء أشجارها، مباني المدرجات وسلالمها.. هنا كنا نجلس، وهنا كنا نتسامر.. لحظات جد وطيش وسعادة، وتلك الوجوه، مالها تحمل من حسن الظن ما تحمل؟ آآآه.. لم تكن قد لوثتها بعدُ أفاعيل البشر وغدر الهموم وتلال المسئولية.

ذلك وجه أخفته الحياة عنا، وذلك ضاع بين أسراب العمل، وآخر رغم القرب ما عاد كما كان، و.. وأنا.. تلك أنا.. كان يسكنني الأمل وتحدوني الحياة و...

أفاقت على دمعة تتسارع نحو شخوص الصورة وكأنها تود احتضانهم، قاومت رغبة في الانتحاب، تنهدت بمرارة، وضمت الصورة إلى صدرها و.. وتذكرت فجأة أن ميعاد وصول زوجها قد حان وأنها لم تُعد الطعام بعد، دست الصورة ثانية بين ثنيات الدرج.. أغلقته.. ونسيت الأمر كله.

" حاولت أن تخفي دموعها وتعتدل في الفراش وهي تتجنب النظر إلى عيني أمها التي رسمت على وجهها ابتسامة ودودا"

"امرأتان"

طرقات خافتة على باب الشقة تصيب جسدها برعدة فزعة، انتصف الليل منذ ساعتين وما عاد لأحد أن يقصد بيتهم زائرًا إلا هو ، ذلك الزائر الدائم ذو الطرقات الخافتة .

حاولت ألا تعير الأمر اهتمامًا وكذلك تفعل منذ شهور لكنها ما عادت تستطيع التجاهل ، يظل قلبها مرتجفًا وجسدها الضئيل الذي لم يتخط سنواته السادسة عشرة متكورًا في الفراش، تكتم آذانًا يكاد يصمُّها صوت الفراش ذي الصمولة المخلوعة في الحجرة المجاورة ..حجرة أمها. أخيرا يخفت الصوت ثم ينقطع ، تدرك كالعادة أن الليلة قد انتهت وترهف السمع لصوت باب الشقة وهو يغلق يسبقه صوت قبلة مجهدة .

تزفر في ارتياح ويغادرها إحساس الخوف رويدا رويدا ، تغلق عينيها محاولة الخلود للنوم وقد أغرقت وجنتيها دموع قهر انطلقت بصمت. فجأة يُفتح باب حجرتها فإذا بأمها تقف على عتبته محاولة ضم طرفي روب شفاف ينُم عن جسد فائر لم تزر صاحبته سنته الأربعون بعد.

حاولت أن تخفي دموعها وتعتدل في الفراش وهي تتجنب النظر إلى عيني أمها التي رسمت على وجهها ابتسامة ودودا واقتربت من ابنتها في تردد ملحوظ ثم جلست على طرف الفراش قائلة في لهجة متهدجة:

_ لقد خُطبت اليوم ...

لم تعِ الفتاة ما تقصد أمها فهزت رأسها مستفهمة ، فازدردت أمها لعابها قائلة:

_ لقد خطبك حميد مني اليوم ، وقد وافقت.

حميد!! ذلك الزائر الدائم لفراشها ..خطبني أنا ابنتها ..ومنها . وهي ..وافقت!!

لم تدر بنفسها إلا وهي تصرخ:

_ هل جننتِ..أتريدنني محللا ومبررا للقاءاتكما ؟ ألا تكتفين بكل هذا العار فتريدين أن تلحقيه بابنتك ..أيّ أمٍّ أنت ..أي أم؟!

قالتها وانهارت منتحبة فانطلقت أمها مغادرة الحجرة و قد خيّم عليها الصمت.

عام مضى منذ أن غادرا معا قريتهما بالصعيد ، تركتا باقي الأسرة بعد سفر الأب وانقطاع أخباره عنهم ، وبعد أن ضاقت بهم سبل العيش، قررت الأم أن تنزح نحو القاهرة باحثة عن عمل فأصرت كبرى أبنائها على أن تصحبها مقترحة أن يمكث إخوتها لدى جدتهم .

منذ اليوم الأول لهما أخذهما ذلك الصخب المرعب للمدينة، وبحنكته أدرك حميد تاجر الروبابيكيا ومدمن المخدرات أنهما صيد سهل فكانت صفقته الرابحة ، استأجر لهما تلك الشقة المتواضعة وكانت إقامتهما ونفقاتهما وأموال ترسل لباقي الأسرة لقاء زياراته لذلك الجسد المتفجر ذي البشرة السمراء ، وكانت موافقة الأم السريعة ، الآن ماذا يضيره إن هو اشتهى جسدًا أكثر شبابًا وجمالا ، وماذا يضير الأم إن هي وافقت ..ولماذا ترفض وسوف

تقاسم ابنتها في زوجها وتربح عشيقًا لها وزوجًا لابنتها ومنفقًا على الجميع أبد الدهر دون قلق ؟!

من بين دموعها لمعت عينا الفتاة بإصرار واضح ، نهضت عن فراشها وراحت تبدل ملابسها..سأغادر..سأعود إلى إخوتي وجدتي وسوف أطلب منهم جميعا أن ينسوا تلك الأم ..للأبد.

" غادرت الحجرة وشعور بالتخبط ينتابها ، باحثة عن تلك الفرحة التي طالما منت بها النفس عند صدور الحكم.. "

"خُلع"

دلفت إلى حجرة القضاة تقدم قدمًا وتؤخر أخرى ، رغم محاولتها الثبات إلا أن شيئًا بداخلها يهتز، حاولت أن تبدو عيناها هادئتين ، فرسمت على وجهها نوعًا من الجدية وتقدمت نحو منصة تجمع ثلاثة من القضاة تتقدم حجرة صغيرة يصطف عشرة من الباحثين الاجتماعيين بجوار جدرانها الأربعة .

نظر إليها أكثر القضاة هيبة وجدية ، وطلب إليها بنبرة حازمة أن تبرز تحقيق شخصيتها ، ثم نظر فيه باهتمام ، ورفع إليها عينيه سائلا : لماذا تريدين أن تخلعي زوجك؟

ازدردت لعابها وراحت تقص عليه باختصار شديد ما حكته لخمس مرات لقضاة وباحثين وشيوخ أزهر منذ بدء التقاضي .

انتهت من حديثها المقتضب ، فقال لها القاضي بحزم : رددي ورائي .

لوهلة أصابها الوجوم . ماذا تردد ؟

راح القاضي يردد قسمًا بأنها تكره العيش مع زوجها ولا تبغي العودة إليه وتتنازل عن كافة حقوقها.

أحست برعشة تنتاب أوصالها ، هل عليها أن تردد هذا القسم؟ ولِم؟

عاد القاضي يلح عليها بالقسم وقد علا صوته ، فانتفضت مرددة إياه وقلبها يخفق في وجل مع كل حرف به .

أحست بأنها أقسمت دون قناعة بما قالت ، أهي حقا تكره العيش معه؟ أم أن الأمر كان يمكن احتواؤه ؟

عادت لتتذكر كل سني القهر التي قاستها على يديه ، فدمعت عيناها وهي تعيد على نفسها ذلك السؤال الأبدي : لو أنه حاول ...لربما ...

أفاقت على صوت محاميها وهو يطلب منها مغادرة الحجرة فقد نطق القاضي بحكم تطليقها مخالعة .

غادرت الحجرة وشعور بالتخبط ينتابها ، باحثة عن تلك الفرحة التي طالما منت بها النفس عند صدور الحكم..

بحثت ..لكنها أبدا لم تجدها.

" صرير الباب يعلن موعد الليلة ،والليلة ككل ليلة ،يزداد تكور الأجساد وتشبثها بالفراش "

"الذئب"

الوقت ليل، والليل يعنى أن يسود البيت كله ظلام حالك .هكذا عودهن الأب،وهكذا اعتدن عدم الاعتراض.

ثلاثة أجساد أنثوية فائرة تختبيء بين الأغطية وتغوص مرتعدة ، ينطلق صوت خطوات مترنحة تقترب من باب حجرتهن ،تكتم كل منهن أنفاسها ،وتخنق دموعًا تتزاحم في الأحداق.

صرير الباب يعلن موعد الليلة ،والليلة ككل ليلة ،يزداد تكور الأجساد وتشبثها بالفراش ،تنتهي الخطوات عند أطراف السرير،تمتد يدان غليظتان تتحسسان الأجساد في شبق وقح ، والقهر يسكن الصدور، واليدان تطولان، تقارنان،تزنان،وتقرران.

وتسحبان ...

هذا الجسد أكثر ملاءمة لمزاج الليلة،"الصنف إياه" كان ثقيلا يحتاج لتلك البضة.

الأرض مضجعهما ،بجانب السرير،لا حاجة لمغادرة الحجرة، اليدان تكملان طريقهما ،فثياب تخلع وقلب تمزق ، والأنفاس تكتم أكثر.

ينسحق الجسدان الآخران فوق السرير،وتدفن كل منهما وجهها تحت الغطاء ،والآذان تصم...رغمًا عنهما تصم.

على الباب تقف الأم،تغرق قلبها ووجهها دموع القهر والذل ،تشيح بوجه مهزوم عن مشهد الجسدين.

تنظر ثانية في لوعة وتصرخ:

_ كفى ...إنها ابنتك أيها الكافر.

نطقت بها ،رغم معرفتها نتيجتها نطقت بها .

وككل ليلة...ينهض الأب كثور هائج ، يمسك بشعر الأم ويجرها كبهيمة ، وبسلاسل حديدية يقيدها إلى السرير ،ويعود ...أمام عينيها يعود.

لم تكف عن الصراخ، ولم يكف عن المضاجعة.

تجذب الصرخات أطفالًا ثلاثة ينطلقون في فزع إلى الحجرة ،ينظرون إلى المشهد ولا يفهمون ،يظن أحدهم أن أباه يضرب أمه، فيصرخ "بابا ...ماما"

تختنق اللوعة في عيني الابنة وتدفن عينيها بين جفنيها في ألم ، تصرخ الأم المقيدة في الطفل:

_ لا تقل بابا ...بل هو جدك ..بل أبوك...جدك.

وتظل تردد في هيستريا وصراخ الأطفال يعلو والمشهد كما هو.

أخيرا ينتهي الأب ، يغادر الحجرة كثور أنهكه طول الصراع في الحلبة.

تنهض ابنته والذل يغرقها..وككل ليلة ...تنطلق لتفك قيود أمها وتنتحب بين يديها .

وتهرع الفتاتان الأخريان كل نحو طفلها ، تحتضنه وهي لا تدري أتحبه لأنه ابنها أم تكرهه لأنه نتاج رعونة وغدر أبيها ....

يدركن أنه ولأول مرة ينسى تقييدهن جميعًا ...يتبادلن نظرات ذات مغزى وتطلق الأم نحو غرفته نظرة يغرقها الكره ..تومىء البنات إلى أمهن في تفهم و...وينهضن.

يمسكن بالسلسلة الحديدية ونحو غرفته يتوجهن .

أربعة أجساد تلتحف بالغضب و....والإصرار.

لوهلة لم يفهم شيئا ،كانت المفاجأة أثقل عليه من قدرته على التفسير وهو المعتاد على إذلالهن وتعذيبهن دون أن تجرؤ إحداهن على الاعتراض ، فما الذي يحدث؟!

تتكفل الأم ومعها اثنتان بشل حركته بينما تقوم الأخرى بتقييده إلى السرير...هكذا كان الأمر أسهل مما توقعن.

تنطلق صرخاته دون جدوى ...مثلما كن يصرخن تحته كل يوم دون جدوى.

ماذا سيفعلن بي ،هل يقتلني ،هل يعذبني كما كنت أفعل بهن؟

تتبادل أربعتهن نظرات انتقام ،تسرع إحداهن إلى المطبخ وتعود بيدها أربعة سكاكين ،يشهق الأب في فزع وقد فهم ما ينتوين فعله، يصرخ برعب، لكن صرخاته لا يسمعها أحد ،فأمام أعينهن تجسدت مشاهد الذل والقهر والعار التي قاسينها على يديه النجستين سنين طوالاً.

يقتربن وكل منهن تشهر السكين في إصرارو....

وينهلن عليه في قسوة ..وينهلن ..وينهلن

مع كل طعنة يحررن أرواحهن من ذل سكنهن طويلا.

تنفجر الدماء من كل موضع به وتسقط رأسه فوق كتفه إعلانًا لموته ومازالت الطعنات تقطع لحمه وتشق عظامه..

وتقطع... وتقطع.

" تذكرين كم كنتُ أخاف عليك وأحمي عمرك بعمري ، كم أحببتك وأنفقت من نفسي ودمي لتعيشي مثلما أحلم وتحلمين "

"ابنتي"

أنا وأنتِ ومن ثالثنا ، هكذا عشـنا سـنين طوالًا ،لا أحد ينازعني فيكِ أو ينازعك في .

فمن قال إنك لستِ أنا، فكلتانا تحمل روحًا واحدة تفرقت في جسدين ، بل ربما أحسست كثيرًا أن جسدًا واحدًا يحملنا.

تـذكرين كم كنـتُ أخـاف عليـك وأحمي عمرك بعمري ، كم أحببتـك وأنفقت من نفسـي ودمي لتعيشـي مثلما أحلم وتحلمين ...كم دافعت عنك وصددت من أرادك بسوء .

وحيدتين عشـنا ولم أعبأ بمن يهمس بأننا امرأتان لا رجل لنا ، فقد صـرتُ أنا رجلك وأباك وأخاك وكل أهلك ..فمن قال إنك وحيدة ...عيشـي يا ابنتي ولا تعبئي بهم.

عيشي ودعيني أحلم بك طبيبة شهيرة وعروسًا فاتنة، تسعدين أباك في قبره وترفعين رأسي بين أهل البلد .

كم بقي من السنين لأرى ذلك الحلم ماثلًا أمام عيني؟

مازلتِ في السادسة عشرة ، سينتظر قلبي تلك اللحظة وستأتي يومًا.

لماذا يبدو وجهك أزرق هكذا ،ماذا بك يا ابنتي،أخائفة من شـيء ، كيف تخافين وأنا هنا بين يديك ،تعالى يا حبيبتي ، ضـعي رأسـك الجميل على كتفي وارتاحي.

أنائمة أنت ؟ ، لا عليك ، سأضعه أنا.. نامي واستريحي .

لماذا يجذبونني بعيدًا عنكِ ، من أنتم وماذا تريدون منا؟

إلى أين تأخذون ابنتي ،بل إلى أين تأخذونني ،ولماذا تقيدون يدي بتلك الأصفاد الحديدية ...تقولون قاتلة ؟

قتلت ابنتي...

***

شـــاردة أنتِ ، دائما أنت شـــاردة يا ابنتي ،قلبي ينبئني بأن في الأمر رجلًا ،لكنني لن أسألك و سأنتظرك حتى تصارحيني مثلما اعتدنا.

الوقت طال ..وطال انتظاري لاعترافك ، هو ابن الجيران ،أليس كذلك ،هكذا أحس.

مازلت شـــاردة ، بل مهمومة أنت ، أأغضـــبك هذا الحيوان ، صـــارحيني حتى أقتص لك منه .

الأمر زاد عن حده ، ما عدتِ تأكلين كما اعتدت ، غابت الضـــحكة عن وجهك، عيناك تهربان مني وكأنك تخفين أمرًا ، فماذا حدث؟

سأراقبك ..هكذا قررت ،كي أعرف ..كي أحميك .

مثلما توقعت ،إنه ابن الجيران ، رسائلكما عبر الهاتف تؤكد أنه هو و...، مهلا ..ما تلك الرسالة وما هذا الكلام ..أتلك منك إليه أم أنها نكتة سخيفة! لا ..ليس الأمر كما فهمت ،ولكن...كلامك واضح لا لبس فيه ..

لاااا!

أنت حامل منه!!

كيف ..كيف

أنا لا أصدق ما فعلتِ بنفسك، بل ما فعلت بي ، كيف هانت عليك أمك ،كيف هانت على قلبك سنوات عمري التي ضحيت بها من أجلك ، بل كيف هان عليك حلمي

وحلمك؟

حلمي؟

أنسيت أني تمنيت ان ترفعي لي رأسي، فكيف قطعت رأسي بيديك ، قتلت أمك يا ابنتي ، لو كان لنا رجل ما جرؤت على ارتكاب الخطيئة ، بل لو كان لنا رجل لقتلك.

قتلك؟

نعم،أنت تستحقين القتل،ولِمَ الرجل،ألستُ أنا رجلك،إذن فلأقتلك أنا..

ولكن كيف ..كيف أغسل عاري ...

أغسل؟

الماء..الكهرباء ،تلك أسرع وسيلة وأقلها عذابًا ،فأنا لا أريد أن أراك تتعذبين ...

ستغسلين ملابسنا اليوم ، ها هو إناء الغسيل الألومنيوم فلأملؤه بالماء ،وذلك هو السلك الكهربائي ،أوصلته بالكهرباء ووضعته أسفل الملابس.

ستغسلين ...رغما عنك ستغسلين.

هيا اجلسي يا هم العمر.. و...

انتظري ..لا تمـدي يـدك في المـاء...لا تموتي، انتظري ،فمـازلـتُ أحبـك ومازلتِ ابنتي . ..لاااا

سبقت يداك صراخي، وسبقني الموت إليك.

بل لم تموتي ..أنت نائمة يا حبيبتي ، يا ابنة عمري ،يا عروسة قلبي ،أنت نائمة ،فتعالي وضعي رأسك الجميل على كتفي...

وارتاحي..

ارتاحي.

" نظرت أمامها فارتسم بعينيها مشهد أمها وهى ترفع أكف الدعاء بعودة ابنها... فعادت تنتحب في قهر "

"النظرة الأخيرة "

_ اللهم رد لي ابني ..اللهم فرّح عيني وقلبي برؤيته.

هكذا لهج لسانها وارتفع كفاها في تضرع راح يهتز له جسدها بأكمله، ولم تلبث أن انهارت فوق سجادة الصلاة في بكاء منتحب زلزل كيانها .

انتزعت "مريم" نفسها من ذلك الحزن الذي سكنها وهي ترقب صلاة أمها وتضرعها، وهرولت نحوها في لهفة،ثم انحنت تلتقط كفيها وتغمرهما بقبلات ساخنة وهي تردد:

_ راح يرجع يا أمي..قلبي يحدثني بإنّا راح نشوفه عن قريب.

أومأت أمها برأسها وحاولت أن تبتلع دموعها وتغتصب ابتسامة زائفة حتى لا تعكر على ابنتها صفو يومها .

_ إن شاء الله يا بنتي ..إن شاء الله.

قالتها وأشاحت بعينيها بعيدا عن عيني ابنتها ، لتخفي نداء خفيًّا يغمر قلبها بأنها لن ترى ابنها ثانية .

عادت "مريم" لتطبع على كف أمها قبلة حنونًا ، وتلتقط حقيبتها وتنصرف عنها مودعة ؛ لتعود أمها تلهج بدعائها تاركة العنان لدموعها.

تثاقلت "مريم" في خطواتها نحو باب البيت ، وأطرقت في حزن وقد شردت بفكرها بعيدا ...إلى ثلاث سنوات خلت ، "إياد" ذلك الأخ الذي رغم سنين أربع يكبرها عنها ،إلا أنه كان يحمل بين ضلوعه قلب أب طالما ساند

طموحها وساعدها على تحقيق حلمها بأن تلتحق بكلية الطب .وها هي ذي في الفرقة الثالثة منها ولم يبق سوى سنوات معدودة ويصبح الأمل واقعًا .

ولكن ..أين هو..أين "إياد" ليفرح معها بثمرة حلمهما ؟

ترقرقت دمعة حارة في مقلتها وهي تذكر كيف حلت الكارثة عليهم عندما علموا أن أخاها قد تم اعتقاله سياسيًّا ،بل تذكرت كيف كان القهر يعتصرها عندما عرفت أنه تم إيداعه سجن صيدنايا العسكري سيء الصيت.

زفرت في أسى وأزاحت تلك الدمعة المتسللة إلى وجنتها

وتمتمت في ألم:

_آاااااه يا سوريا ..آه يا وطنًا حرمت فيه من وطني .

أجفلت واتجهت نحو كليتها يجرها قهر ذليل.

***

تكاسلت في ضيق وهي تتجه بخطوات مترددة وسط حشود من زملائها نحو قاعة التشريح.

كم تكره تلك المادة التي تجبرها على التخلى عن طبيعتها الأنثوية لتعبث بمشرطها في تلك الجثث البشرية .

طبيبة ... نعم ..هكذا تحلم أن تكون، لكن بعيدا عن الجثث وتلك الوجوه الباهتة التي تخبيء تاريخًا تجهله وتحمل أحلامًا ووعودًا لم يمهلها القدر لتتحقق.

معادلة لم تقدر على حلها يوما.

_اضحكوا بعبكن رح تشوفوا جثث جديدة اليوم.

همس بها عامل المشرحة ومضى بعد رسم ابتسامة جافة دبت الخوف والارتباك في قلب "مريم"، فتشبثت بيد صديقتها وتبادلت معها نظرات قلقة.

سنرى جثة جديدة بعد أن اعتادت أعيننا تلك الجثث المهترئة التي تفوح منها رائحة الفورمول و التي مال لونها إلى السواد من كثرة ما مر عليها من سنوات .

دلفت بين الحشد إلى القاعة ،أبصرت عيناها الجثة ممددة على طاولة التشريح ،انتفض قلبها بين ضلوعها وهي تراها ملفوفة بقماش أبيض على عكس ما اعتادوا عليه من هيئة الجثث.

_ اليوم عندنا جثة طازة، ما باس تمها إلا أمها ، انتوا من الطلاب المحظوظين كتير.

هكذا هتف الدكتور ، فازدادت التصاقا بصديقتها،وازدادت دقات قلبها على نحو مفزع ، فرفعت يدها طالبة الإذن بالانصراف إلا أن الدكتور رفض طلبها قائلا:

_ لازم تكوني متماسكة أكتر من هيك يا "مريم" ،اليوم بتشرحي أموات وبعد كام سنة راح تشرحي أحياء.

لاذت بالصمت مجبرة ،بينما راح الدكتور يقول في حماسة إنه سيراجع مراجعة شاملة بعض الأعضاء التي لم تكن واضحة في العينات التشريحية البحثية السابقة.

ثم أزاح القماش الأبيض عن وجه الجثة وراح يزيحه عن الجسد كله و.....

انتفض كيانها بعنف ، واتسعت عيناها في ذهول ، انحنت تقترب برأسها من وجه الجثة ، حتى غشيت رئتيها رائحتها،مدت أصابع مرتعشة تتلمس تلك الملامح وكأنها تُكذب عينيها .ولم تكد تفعل حتى ارتدت في عنف وكأن صاعقًا أصابها.

مين ؟....مستحيييييييل.

هو..."إياد" ...خيي ....لا ... ما هو.

عادت لتحدق إليه أكثر، تلك الملامح لا يمكن أن يخطئها قلبي مهما مرت عليها السنون واعتراها من ألم.

خيي ...خيي .

صرخ بها قلبها بينما انعقد لسانها.

انهارت فوق جثته تنتحب في لوعة ، احتضنت جسده بين ذراعيها وكأنها تحتضن عمرًا مضى ،وجرحًا عزّ على الشفاء. وبكل قهر الدنيا ووجعها وثورتها راحت تصرخ:

_ آآآآآآآآآاه

أفاقت على أذرع زملائها تنتزعها من فوق الجثة والدكتور يصيح:

_ ايش بك ؟ وكيف راح تكوني طبيبة وأنت ما بتتمالكي أعصابك هيك ؟

أطلت من عينيها نظرة خاوية وكأن الكون كله قد دفن بين جفونها.

كادت أن تصـــرخ : " إنـه أخي ...أخي المعتقـل الـذي لم نكف يومـا عن الحلم بعودته أنا وأمي كل صباح و...

افترثغرهـا لتنطق ،إلا أن صـــمتًا أطبق عليهـا ...لن أســـلم أنـا وأمي إن نطقت بالحقيقة.

دفنت قهرها في صدرها و....

وسـقطت مغشيًّا عليها.

أفاقت لتجد نفسـها بين ذراعي صـديقتها تحملهما سـيارة متجهة صـوب المنزل .

رفعت رأســـها ،والتفتت تنظر نحو مبنى كليتها للمرة الأخيرة، وقد ابتلعه الأفق و اختفت معالمه مع ابتعاد الســـيارة ،تاركة بداخله حلمًا طالما ناضـــلت لتحقيقه و..

وجسدًا تعبث به أيدي زملائها ويمنعها العجز عن إيقافهم.

نظرت أمامها فارتسـم بعينيها مشـهد أمها وهى ترفع أكف الدعاء بعودة ابنها...

فعادت تنتحب في قهر.

" دلفت بينما أحست بقدميها ترفضان الدخول ،شيء ما بداخلها يلح عليها أن ارجعي ..لا تدخلي ..لا تطيعيهم."

"لوعة الفراق"

فُتح الباب أمامها وكأنه الجحيم تساق للدخول إليه ..عصفت بأنفها رائحة الفورمول، فدار رأسها وكادت تسقط ،تشبثت بمقبض الباب ،ساعدها الطبيب في إشفاق وهو يتمتم بكلمات تشجيعية مقتضبة .

دلفت بينما أحست بقدميها ترفضان الدخول ،شيء ما بداخلها يلح عليها أن ارجعي ..لا تدخلي ..لا تطيعيهم.

لكن نظرات الطبيب المتحمسة دبت بأعماقها بعض التماسك، وقفت مشدوهة تنظر إلى تلك الأدراج الضخمة المتجاورة والممتدة بطول الحجرة الواسعة.

همس الطبيب بأذنها في لهجة حانية :

_ سوف ترين خمس جثث وعليك التعرف على ....

قاطعته بصرخة مكتومة وهتفت:

_ لا تكمل ..أرجوك ..

صمتت وقد أمسكت قلبها بقبضتها كأنها تعصره عصرًا علّه يكف عن الانتفاض ،وأردفت:

_ لن تكون ابنتاي بينهم ...بإذن الله.

هز الطبيب رأسه في حرج وغمغم :

_ بإذن الله.

قالها وهو يدرك جيدا أن ما تنتظره مستحيل ،لكنه أبى أن يخنق الأمل الساكن بعيني أمّ مكلومة لا تملك غير الدعاء.

أمسك بأول الأدراج يجذبه وكأنه يجذب روحها بقبضتيه، انتفضت وأشاحت بوجهها ،فقال لها:

_ حاولي ..

أدارت وجهها ببطء نحو الجثة وقد كشف وجهها الملوث بالدماء ،ثم زفرت بارتياح وهمست:

_ لا.

أعاد الدرج مكانه ،وأمسك بمقبض آخر فازدردت لعابها بفزع وأخفت وجهها بين يديها ،ثم فتحت عينيها نصف فتحة لتبصر وجهًا قد شُوه نصفه ،فصرخت في ألم ،ثم هتفت من بين دموعها:

_ لا ..ليست هي.

توقف قليلا ، وهمس في حنان:

_ تمالكي نفسك ..وليكن أملك في الله كبيرًا.

أومأت برأسها وابتلعت دموعها وقد أشعرتها كلماته ببعض الهدوء ،فجذب هو الدرج الثالث ،لتزفر هي في ارتياح وتتمتم :

_ حمدا لله ،ليست هي.

وقف الطبيب مترددًا ، وقد أدركت هي سبب تردده ،فلم يعد متبقيًا سوى جثتين فحسب، وربما.....

_ أرجوك ..لا تفتحهما.

صرخت بها في توسل وهي تعود إلى الخلف في خطوات متخبطة مرتبكة ، وقد سكنت عينيها نظراتٌ زائغة وانتفض جسدها بعنف وهي تتجه نحو الباب وتكاد تتعثر.

هل يمكن أن تكون ابنتاي ..ابنتا عمري كله ..وكل أحلامي وسعادتي وشقائي، عروستاي ..فرحة قلبي الوحيدة ،

هل يمكن أن تكونا ها هنا ..في هذين الدرجين .. جثتين هامدتين؟

لا ..لا يا ربي ..أتوسل إليك ألا تفعل ..فلست بتلك القوة لتبتليني هذا البلاء العظيم ..أرجوك أنا لست أهلا لذلك الاختبار..ليس لي غيرهما في تلك الحياة ..اتركهما لي ..أرجوك.

أسرع الطبيب يمسك بذراعها وقد كادت تسقط على الأرض ، ساعدها حتى الوصول إلى الدرجين وهو يحاول تهدئتها قدر الإمكان بينما لم تكن هي تسمع من كلامه شيئًا ،فقد ذاب عقلها وكل حواسها بين مقبضي الدرجين وتحجرت عيناها عليهما.

تمالك الطبيب نفسه وأمسك بأول درج وفتحه بيد مرتبكة و....

انتفض على صراخها وهي تردد:

_ مارينا ..ابنتي..لاااااا

أمسكت بالدرج وكادت ترتمي فوق الجثة وقد اختُزل الكون كله بعينيها في تلك الدماء التي تملأ وجهًا ملائكيًّا لم ترتكب سنواته الست عشرة ذنبًا يستحق تلك الميتة البشعة .

بصعوبة خلّص الدرج من بين أصابعها وأعاده .

رفعت وجهًا أغرقه القهر وارتسم الموت على ملامحه ، اتسعت عيناها في فزع وهي تراه يمسك بآخر درج.

مسحت دموعها وانتصبت في اعتدال، حاولت أن تتماسك بعض الشيء، وهمست:

_ فبرونيا..لن تكون هي..ربي لن يحرمني منها أيضا.

ثم نظرت إلى الطبيب تطمئنه، ففتح الدرج ببطء .

_ فبرونيا.

لم تصرخ باسمها ،بل رددته في غير تصديق وألم يائس.

جثت على ركبتيها أمام الدرج وقد أخذ جسدها يرتعد بعنف وراحت تتمتم في ذهول:

_ ابنتاي ..الاثنتان معا ..الاثنتان...لماذا ..لماذاااااا

طأطأ الطبيب برأسه أرضًا في حزن ولم يستطع تلك المرة مواساتها ،فقد تجاوز ألمها قدرة الكلمات على التخفيف.

ابتعد عنها في بطء ووقف بجوار الباب ودمعت عيناه بينما أخذ صراخها يعلو وبين ضلوعها تنتفض لوعة أهل الأرض جميعًا.

" أن تقتل أحدًا ليس بالأمر الهين..فماذا لو كان أقرب أصدقائك إليك.."

" الخائنة"

مازلت أراه أمامى ..ها هما عيناه تنظران إلي في تحدٍ صارخ وكأنهما تتوعدانى في صمت ..لماذا يطاردنى ذلك المشهد البشع وتلح على ذاكرتى صورته.

أن تقتل أحدًا ليس بالأمر الهيّن..فماذا لو كان أقرب أصدقائك إليك..

ليس بكابوس ..فقد تخطى تلك المرحلة ليصبح واقعًا تلمسه جوارحى وتعيشه روحى ، مات؟ نعم ..لكن شيئًا منه مازال يسكننى ..يقبع بين ضلوعى ..يرقد بين أنفاسي ..يختبئ بعيني.. يرقبني ..وكأنه يلازمنى أينما حللت، حتى لكأنى أستشعر رائحة عرقه تلفح أنفى فأنتفض باحثًا عنه ...إنه مازال بداخلى ولن يتركنى ..لن يترك ثأره منى.

***

بائسة أنا ..فمتى أدركت بؤسي هذا ؟ ربما منذ بحثت عن ذلك الكائن الأسطوري المسمى مجازًا بالحب ونبشت عنه صحراء حياتي الزوجية فلم أجده .

فقد استحالت حياتنا "أنا وأحمد" إلى مسرحية هزلية يتقمص كل شخوصها دور السعيد بينما يعتصر الشقاء والبلادة لحظاتنا معا حتى تلك اللحظات الخاصة جدا لم تسلم من شقائنا فصارت محض روتين ممل، وشيئا فشيئا فقدت لذتها ورونقها ولم يعد لها أي قيمة بيننا.

باختصار..امرأة عشرينية تحيا بقلب تخطى الستين ..تلك أنا.

لحظة..فإن هاتفى يرن ..هذا "سعيد"

من يكون ؟

هو من سقط على صحرائي فأنبت بقلبي أسطورة الحب ، وأنقذ شبابي من موت كاد يفتك به.

خائنة أنا؟..ربما. لكننى لم أخن زوجى قدرخيانتى لنفسي عندما قبلت أن أحيا بلا قلب.

واليوم ..فقد قررت أنا و"سعيد" أن يشرق حبنا في سماء حياتنا وأن نهِب له البقاء حتى لو اضطررنا.....

***

رمقه بنظرة غلّفها القلق بينما كان "أحمد" متوجهًا إليه رافعًا يده بالتحية وقد علت وجهه ابتسامة عذبة .

تبادلا السلام وأسرع "أحمد" يستقل الدراجة البخارية خلف "سعيد" هاتفا :

_ هيا أسرع يا صديقى حتى نلحق بالعزاء ...فقد تأخرنا كثيرا وأخشى أن نصل بعد أن ينفض.

ابتسم "سعيد" في خبث قائلا:

_ لا تتعجل ..فلكل شىء أوان.

قالها وانطلق بدراجته البخارية ينهب الأرض وكأنه شيطان يقود ضحيته إلى حتفها.

الترعة ...المكان المقصـــود ...هاهى ذي تلوح لعيني "ســـعيد" فتبرقان في نهم.

تقترب الدراجة من الترعة فيتوقف محركها فجأة .

يرتسم انزعاج زائف فوق وجه "سعيد" صائحًا:

_ ياللحظ.. لقد تعطلت.

_ ماذا سنفعل؟

يســـأله "أحمد" في قلق ناظرًا إلى ســـاعته ،فيشـــير إليه لأن يهبط عنها مجيبًا:

_ سأحاول أن أرى ما بها.....

قالها وهو يهبط بدوره ويراقب "أحمد" وقد اســـتدار يبحث عن مكان مناسب ينتظر فيه و...

وكانت تلك هى اللحظة المناســـبة ، فقد أســـرع "ســـعيد" يلتقط حجرًا ويقذف به رأس "أحمد" فيسقط الأخير على وجهه وقد أغرقته الدماء .

لم يســـتوعب أن قاذفه هو صـــديقه فيدير رأســـه إليه غير مصـــدق وقد ألجمت الصدمة لسانه ، لكن نظرة تساؤل تصرخ في عينيه ما تلبث أن تتحول إلى فزع عندما يستل "سعيد" سكينا من بين طيات ملابسه و...

رفع "أحمد" يده محاولا أن يذود عن نفســـه بينما خذله جســـده وثقل رأسه فلم يستطع النهوض من سقطته والفرار من وجه صديقه.

ســـت طعنات كانت نصـــيب قلبه ، فأســـلم الروح ومازال ســـؤاله عالقًا بعينيه .

متحاشـــيًا النظر إلى وجهه يجر "ســـعيد" جثة صـــديقه ويقذف بها في الترعة ، حتى إذا اطمأن إلى اختفائها بين ذرات المياه أســـرع يســـتقل دراجته عائدا تحت جنح الظلام ، هامسًا :

_ الآن فقط يمكننا أن نتزوج يا حبيبتي.

" قالتها في محاولة أخيرة لاستدرار عطفه؛ فربما ظنت أن بقايا إنسانيته قد تنقذ ذلها "

"زبيدة"

سارت نحوه يجرّها حزن ذليل ورفعت إليه عينين كسيرتين أخفى المرض عنهما سحرًا لطالما أسكر الكثيرين.

_ عبد الله ..كيف تتركنى وابنك وحيدين في هذا البلد الغريب ..ماذا اقترفت من ذنب لتقسو عليّ هكذا؟

رمقها بنظرة اشمئزازوأشاح بوجهه عنها ثم استدار .

_ عبدالله..انتظر...

قاطعها بإشارة حازمة من يده وصاح :

_" مينو"..اسمى "جاك مينو" ..لا تناديني باسم غيره ..أفهمتِ؟

قطبت حاجبيها في دهشة متسائلة:

_ ماذا تعنى ..هل ارتددت عن الإسلام وعدت إلى دينك؟

أطلق ضحكة ساخرة اهتز لها جسده الممشوق وقال في جذل:

_ أنت لا تفهمين شيئًا عن أصول اللعبة ..

ثم استطرد وقد برقت عيناه :

_ وأصول الحكم.

قالها وتحولت ملامحه على نحو غريب وكأنما عادت إلى ناظريه أحداث زمن ولّى وذكرى عصفت بكيانه، ثم لم يلبث أن أفاق من شروده وزفر في حسرة واضحة، ثم نظر إلى وجهها الأغبر الشاحب وشعرها المنسدل الذى غار

الوسخ على سحر سواده ..فهز رأسه بقوة وكأنما ينفض عنه مشهدًا يؤرّق ناظريه ، ثم عاد ليستدير عنها مشيحًا بيده في وجهها:

_اذهبي عنى ولا تريني وجهك أبدا فإنني كلما رأيتك تذكرت مجدًا ولّى وحلمًا انسحق في بلدك على يد الإنجليز. .

صاحت منتحبة:

_ لكنك أجبرتني على الخروج بابنك من مصر والسفر إلى فرنسا هاربة خائفة ضائعة ..والآن تهجرني وتتخلى عن ابنك وأنت حاكم إحدى محافظات هذا البلد ..فماذا تفعل امرأة وحيدة مثلى في بلد كإيطاليا ولا أحد يعيننى ؟

ماذا أفعل وقد تنكر لي كل أصدقائك ومعارفك بعدما وجدوا من هجرك لي.

ثم انهارت واستدركت في توسل :

_أرجوك افعل شيئًا من أجل ابنك الذى يموت جوعًا ولا أجد ما يسد رمقه ، أو ساعدني في الرحيل إلى مصر..أرجوك.

قالتها في محاولة أخيرة لاستدرار عطفه؛ فربما ظنت أن بقايا إنسانيته قد تنقذ ذلها لكنها أدركت أن رجلا اختار بإرادته أن يتخلى عن زوجته وابنه ويصفع فى وجههما باب رحمته لا يمكن أن يحمل بين ضلوعه قلبًا كقلوبنا.

***

_ وصل وصل.

هتفت بها الخادمة وهى تهرول حيث تجلس سيدتها "زبيدة" في حجرتها.

هرعت "زبيدة" على وقع صياح خادمتها نحو الباب تستقبلها بسؤال ملهوف:

_ أحقًا جاء إلى بيتنا يا عائشة؟

_ أجل يا سيدتى ..إنه هو بنفسه ..سارى عسكر رشيد حضر إلى هنا ومعه بعض جنوده ومترجمه الخاص والشيخ الجارم أيضا وقد استقبلهم سيدى محمد البواب وهم الآن جالسون في الطخطابوش.

تحولت لهفتها لحيرة قلقة وعبثت أصابعها في خصلات شعرها الناعم متسائلة بصوت هامس:

_تُرى ما الذى يحمل سارى العسكر على زيارتنا؟

***

_ إن سارى عسكر رشيد "جاك مينو" قد دخل الإسلام قلبه وأعلن إسلامه بين يدى شيوخ الأزهر ويرغب في الزواج من إحدى فتيات رشيد.

قالها مترجم "مينو" فعبث القلق بأعماق والد "زبيدة" وهو يدعو الله ألا يكون ما فهمه حقيقة.

إلا أن "مينو" قد أدرك بفطنته ما يعتمل بقلب الرجل فأشار إلى مترجمه أن يسترسل في حديثه ، فاستطرد موجهًا كلامه إلى والد زبيدة :

_ لذلك فلم يجد سارى عسكر رشيد أفضل من ابنة "محمد البواب" عين أعيان البلد لتكون زوجته وملكة مستقبلية لمصر بعد أن عرف بأمر طلاقها وانقضاء شهور عدتها.

أُسقط في يد "محمد" ؛ فقد تحقق ما يخشاه ..حاول أن يعترض إلا أن نظرات صارمة أطلت من عيون الجنود المتحوطين بساريهم جعلته يبتلع حروف كلماته ويطرق أرضا مغمغمًا :

_ سوف أبلغ العروس.

***

اغرورقت عيناه بدموع القهر والحسرة وهو ينظر إلى تلك الزينات التى أحاطت بمنزل "محمد البواب" لتنبئ بمراسم العرس .

نظر إليه صديقه في حزن قائلا :

_ لماذا إذن طلقتها يا " سالم أغا" ؟

مسح عن عينه دمعة كادت أن تفاجئ وجنته وغمغم في صوت لم يسمعه غيره:

_ لقد أُجبرت على تطليقها.

ثم أشار بحسم إلى سائق الأحصنة الجارة للعربة فانطلق بعيدا .

***

لم يكن يظن أن هناك جمالا لم تستوعبه عينه وهو ذاك القائد الأشهر للحملة الفرنسية ..لقد كاد يقسم وهو ينظر إليها إن سنينه الثمانى والأربعين لم تصادف هذا السحر من قبل.

ماذا يفعل المأخوذ في محراب إلهة الجمال الشــرق العذب إلا أن يظل مشدوهًا يسبح بحبها ما بقى له من عمر..طافت عيناه تشرب من جمالها علّها ترتوي.

_ ستكونين يومًا ملكة على مصر..بل على فرنسا ؛ فأنت خُلقتِ لتكونى ملكة متوجة.

ربما ســكن الحزن ملامحها ولم تســتطع أن تخفى قهرًا يعتصــرها منذ عُقد القران ، إلا أن شيئًا في كلماته ذات اللكنة الفرنسية جعلها تطرح حزنها للحظة .

لمحت عيناه انفراج أساريرها فأكمل حديثه وهو يتعمد أن يُحمل كلماته من الحب والحنان ما يليّن قلبها:

_ أنتِ أجمل مكافأة حصلت عليها في حياتى ..فلا أظنني سأفرح بمُلك ولا جاه كفرحي بك.

ثم استدرك:

_ لكننى أحس بأن الأيام المقبلة ستحمل لي الخير..فإن ما يفعله "كليبر" من سياسات القمع ستطيح به حتمًا لأصبح أنا سارى عسكر مصر بأكملها ..وتصبحى أنت الملكة المتوجة على عرش مصر وعرش قلبي.

***

أحســت بغصــة تخنقها وهى تجتر تلك الذكريات، حملت ابنها ومعه حملت ذلها.. تأكل طرقات إيطاليا من جســدها ما تأكل. تنظر إلى طفلها وهو يُحتضر وقد تحجر الكون في عينيها ..وما من مغيث..

الفهرس

مقدمة	٥
"سعاد"	١١
"هو"	١٥
"الخروج"	١٩
"الكشك الخشبي"	٢٥
"بلوغ"	٣١
"الآخرون"	٣٥
"إيواء"	٣٩
"عطش"	٤٣
"حائرة"	٤٧
"رغبة"	٥١
" الضحية"	٥٥
"الرقص على أذرع باردة"	٥٩
"كلتاهما"	٦٣
"لقاء"	٦٧
"سلام"	٧١
" هي"	٧٥
" قناع"	٧٩
" لقطة"	٨٣

"صورة" ٨٧
"امرأتان" ٩١
"خُلع" ٩٧
"الذئب" ١٠١
"ابنتي" ١٠٧
"النظرة الأخيرة" ١١٣
"لوعة الفراق" ١٢١
" الخائنان" ١٢٧
"زبيدة" ١٣٣
الفهرس ١٣٨
رسالتنا ١٤٠

رسالتنا:

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017